



عم أنس

زكريا محمد *

معروفة جيداً «قصة سنوحي» المصرية الفرعونية القديمة، التي ألفت في حدود 1875 ميلادية كما يعتقد. ولدينا عدة نسخ من هذه القصة من أوقات مختلفة. فقد كانت قطعة أدبية واسعة الانتشار على مدى ألف عام. ويختلف حول طبيعة القصة. فهناك من يظن أنها عمل خيالي وليس تاريخياً. لكن الغالبية ترى أن العناصر التاريخية فيها أكيدة، وخاصة أسماء الأشخاص والمناطق.

بداية القصة غامضة. لكن يبدو أن سنوحي الموظف عند الفرعون سمع مصادفة حديثاً ما يشير إلى مؤامرة ما لقتل الملك - الفرعون أمنيمهات، مؤسس الأسرة الثانية عشرة في بدايات القرن العشرين قبل الميلاد. وقد اضطرب الرجل حسين بهذا الأمر المهول بالنسبة له، ولم يعرف الرجل كيف يتصرف. فحمل نفسه مسرعاً وهرب خارج مصر. قطع سبيلاً ثم وصل إلى ساحل الشام فمر على جبيل، ثم وصل إلى منطقة تدعى «قديم»، يعتقد كثيرون أنها «قطنة» في سوريا، حيث أمضى عاماً ونصف العام. ثم انتهى به المطاف عند زعيم منطقة يدعى «عموناشي»، وصفه بأنه «حاكم رتنو العليا». ويعتقد كثير من الباحثين أن سنوحي يتحدث هنا عن منطقة في سهل البقاع اللبناني. وقد احتضنه عمينيشي وأقطعته أرضاً تدعى «يا» وزوجه ابنته وجعله مساعداً عسكرياً له، حيث أقام عنده سنوات طويلة. لكن سنوحي عاد إلى مصر في النهاية بعدما استدعاه الفرعون، حيث روى له قصته المثيرة.

أما أنا، فأظن أن سنوحي اتجه، بعدما قطع سبيلاً، إلى منطقة ما بين فلسطين والأردن. أو لأقل إنها منطقة تقع جنوب

خط بئر السبع- الكرك مع احتمال أن يكون مقامه النهائي في منطقة خليج العقبة، حيث كان قوم عموناشي في ما يبدو يسكنون. كذلك أعتقد أن «قديم» ربما كانت قبيلة «جدام» التي كانت تسكن حول خليج العقبة في الإسلام. على كل حال، وأياً كان المكان الذي بلغه سنوحي، فإن همي الأساسي أن أتعرض أساساً لاسم الزعيم، أو الشيخ القبلي، عموناشي communnashi الذي استقبل سنوحي وتجنّاه. ولم تقدم فرضية معقولة حول أصل هذا الاسم ومعناه. لكن هناك من اقترح أنه يعني «عمو بن ناشي». لكنني أظن أن هذا الاقتراح ضعيف جداً وليس مهماً. أما فرضيتي، فتقول إن اسم الرجل هو «عم أنس». وهو اسم معروف جداً لصنم إله تعبدته قبيلة خولان، أو بعض بطونها، قبيل الإسلام. وقد وثق ياقوت الاسم مشكلاً هكذا: عُفْنَانِس: «عُفْنَانِس: بضم العين وسكون الميم وياء وبعد الألف نون مكسورة وسين مهملة. قال أبو المنذر: وكان لخولان صنم يقال له عميانس بأرض خولان، يقسمون له من أنعامهم وحرثهم قسماً بينه وبين الله عز وجل بزعمهم. فما دخل في حق الله من حق عميانس ردوه عليه وما دخل في حق الله من حقه له. من حق الله الذي سموه له، تركوه له. وهم بطن من خولان، يقال لهم الأذوم وهم الإسوم. وفيهم نرك فيما بلغنا قوله تعالى: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون» الأنعام 136 (ياقوت، معجم البلدان).

وهكذا يبدو أن القرآن قد أشار إلى هذا الإله من دون أن يسميه. أما الرسول فقد سماه، وسال وفد خولان الذي جاءه

كي يعلن إسلام القبيلة عن هذا الصنم: «أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي قال حدثني غير واحد من أهل العلم قال قدم وفد خولان وهم عشرة نفر في شعبان سنة عشر فقالوا يا رسول الله نحن مؤمنون بالله ومصدقون برسوله ونحن على من وراءنا من قومنا وقد ضربنا إليك أباط الإبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل عم أنس؟ [وهو] صنم لهم. قالوا: بشراً وعزاً. أبدينا الله به ما جئت به ولو قد رجعت إليه هدمناه» (ابن سعد، الطبقات الكبرى).

وقد ورد الاسم كذلك في نصوص المسند العربية الجنوبية: «وساعدهم في الحرب النبي بينهم وبين عم أنس بن سنحان» «عمي أنس بن سنحان»، وبينهم وبين قبيلة خولان» (جواد علي، المفصل).

بناءً عليه، يمكن للمرء أن يفترض أن اسم الزعيم القبلي المذكور في قصة سنوحي يجب أن يكون «عميانس». لكن من المحتمل أن يكون الاسم بالنسبة: «عم أنسي»، أي العمانسي، وبمعنى الذي يتعبد للإله «عميانس» ويتبعه، أو الذي يتعبد له ويكهن. وإن



لفظة «عامو» كان تطلق عند المصريين على الآسيويين عمومًا. وعلى سكان فلسطين وبلاد الشام



صح هذا، فهو يؤكد فرضيتي أننا في منطقة بين جنوب فلسطين وشمال الجزيرة العربية. ولا يخفى أن جنوب فلسطين كان دوماً أقرب إلى الجزيرة العربية.

يؤيد هذا أن نص القصة يحدثنا لاحقاً عن شخص يدعى «مكي من قديم». والاسم مكي يذكر بالنقوش الصفائية، وهي نقوش بلهجة عربية مكتوبة بالأبجدية القديمة التي اندثرت. فقد ورد في هذه النقوش الاسم «عبد ملك». كما ورد «عبد مكة» بالتأنيث. ومن الصعب أن لا يربط المرء بين «مكي» في سنوحي وبين «مك» النقوش الصفائية. ومن الواضح أنه كان هناك إله يدعى «مكي، مكي، مكو» يسمي الناس أبناءهم باسمه. لكن علينا أن نشير إلى أن في قصة سنوحي أسماء صعب الوصول إلى أصلها مثل «خنثيوش» من «خنثيكيشو» كما وصفه النص. ولعل مثل هذه الأسماء تعرضت للتصحيف من قبل النساخ المصريين.

وهناك من يعتقد أن عموناشي مرتبط ب«قديم» بناءً على نص القصة. لكن النص لا يقول هذا في اعتقادي. إذ أن زعيم قديم، التي افترضنا أنها جدام، هو مكي كما تقول القصة «مكي من قديم». وفي النص يطالب سنوحي فرعون بأن يحضر مكي القديمي هذا إلى مصر، ويصفه شاب يعتمد عليه ويحب الفرعون. أما عموناشي فهو حاكم «رتنو العليا» وليس قديم. والمشكلة أن إجماع بين الباحثين الغربيين على أن «رتنو العليا» هي اسم لشمال بلاد الشام، أي عملياً لسوريا ولبنان. وهذا يتناقض بشدة مع فرضيتي. لكن هذا قد يحل من واقع أن إحدى نسخ قصة سنوحي تحذف الراء من بداية كلمة «رتنو». وهذا يعني أننا مع «تنو» وليس مع «رتنو». ومن المحتمل أن تكون هذه النسخة

تصحيحاً لخطأ النسخ الأخرى التي استخدمت «رتنو». والحقيقة أن هذا أكثر منطقية. فكيف يمكن لعموناشي أن يحكم غالبية بلاد الشام ثم يكون مجهولاً عند الدول والإمبراطوريات في المنطقة؟ بناءً عليه، فالرجل كان حاكماً لتنو العليا، وليس لرتنو العليا. وإذا صح هذا، فهو يدعم أن مسرح أحداث قصة سنوحي يقع بين جنوب فلسطين وشمال الجزيرة العربية.

وهناك شيء آخر مهم في النص وهو تعبير «حقاً خاسوت». وهذا التعبير وهو التعبير الذي صار لاحقاً اسماً للهكسوس الذين احتلوا مصر عند المصريين. وقد حرف اليونان هذا الاسم إلى «هكسوس». وهو يترجم على أنه يعني «حكام البلاد الأجنبية». والغريب أن هذه الترجمة طبقت على الاسم في القصة. فكيف يكون هذا؟ كيف يكون قوم عموناشي الذين يسكنون في بلادهم حكاماً للبلاد الأجنبية؟ هذا غير ممكن، وغير معقول. وهو يشير إلى أن ترجمة تعبير «حقاً خاسوت» على أنها «حكام البلاد الأجنبية» ترجمة خاطئة هنا في القصة ولاحقاً أيضاً. وهو ما يعني أن هذا الاسم «حقاً خاسوت» اسم محلي في هذه المنطقة، وليس اسماً مصرياً في الأصل. ويجب تحليل هذا الاسم وفهمه على هذا الأساس. أضف إلى ذلك أن عدداً من ملوك الهكسوس، مثل خيان الشهير، وضعوا لاحقاً هذا اللقب على أختامهم «حقاً خاسوت». فهل يعقل أن يقبل حاكم هكسوسي أن يكون حاكماً لمصر ثم يشير لنفسه بأنه «حاكم البلاد الأجنبية»؟ أظن أنه لا يعقل، لأنه يعني أنه غريب وغير شرعي.

ولعلني أعود إلى حقا خاسوت هذه في مادة مقبلة.

* شاعر فلسطيني